حافظ واللغة العربية

للشيخ عبد القادر المغربي[1]

الفجيعة في حافظ هي فجيعة اللغة العربية فيه ولم ينشأ المجمع العلمي الا لخدمة هذه اللغة. والحرص على ارضائها : فاذا بكت اللغة بكى المجمع . واذا صاحت اللغة : واثكلاه واوحيداه صاح المجمع صياحها : واثكلاه واوحيداه : وهذه لغة الضاد في موت (حافظ) اقامت مأتماً عاماً شمل بلاد العرب كلها : من طنجة الى انسيانية : تبكي في مأتمها هذا حافظاً وتندبه

«لبنان[2] يبكيه وتبكي الضاد من حلب الى الفيحا الى صنعاء»

وان اجتماعنا هذا صورة مصغرة للمأتم الكبير الذي اقامته اللغة لتأبين حافظ. وأقوالنا في هذه الحفلة انما هي صدى شبيه وعويلها :

« لقد[3] رزئت ام اللغات وحيدها فان لم تكنه فالأب البر والجدا »

« مشت تتلوى خلف نعشك كلما دعا باسمها الداعي اجدّ لها وجدا »

« فلما بلغت القبر خرّت لوجهها تضج وتشكو من تباريحها الجهدا »

حافظ ايها السادة هو الشاعر الشاعر . وهو فوق ذلك لغوي واخباري

أما كونهُ شاعراً فأمر لا يجهله احد . ومن يجهل ان «حافظاً» كان اذا قال شعراً لا يلبث أن تتناقله الافواه . وتتلقفه بحلاوته الشفاه ؟ . شعرُ حافظ يمتزج بالعاطفة فيولّد فيها رقة الشعور . ويمتزج بالنفس فيولد فيها ذوق اللغة . ويمتزج باللسان فيغرس فيه ملكة الفصاحة مدارسة كتب الادب . واستظهار الفصيح من نوادر اللغة، لا يمنح النفس واللسان ملكة الفصاحة بقدر ما يمنحها شعرٌ كشعر حافظ : نقيُّ اللفظ منسجمُ الاسلوب مشرق الديباجة يعبر عن خوالج النفس الوطنية الثائرة فيحفزها نحو مطامحها العظمى . وينير امامها الطريق الى مثلها الاعلى . شعر حافظ كالمصباح يمشي نورهُ بين ايدي ابناء امته . فيهديهم الطريق . لا بعيداً عنهم يمشي وحده. ويتركهم في ظلمات لا يبصرون . شعرٌ مثل شعر «حافظ» يحيي لغتنا ويحقق قوميتنا ويثبت اقدامنا في اوطاننا . كان (حافظ) رحمهُ الله يقول الشعر لخدمة أمته. لا لخدمة شهرته . وإن فتىً عربيًّا او فتاة عربية تحفظ من شعر حافظ قصيدة (غادة اليابان) او قصيدة

« خرج الغواني يحتججن وبت ارقب جمعهن »

فقد استفيد منهما ملكةٌ في اللغة الفصحى، وحميةٌ في حب الوطن. اكثر من مئة قصيدة غامضة المعنى.

---

(١) من محاضرته في حفلة تأبين حافظ في المجمع العلمي العربي بدمشق وقد نشرت في مجلته

(٢) من مرثية احمد شوقي في حافظ (٣) من مرثية احمد محرم في حافظ

العجمية الأسلوب . ولولا اني اتكلم عن (حافظ) من ناحيته اللغوية لسردتُ لكم شواهد تؤيد ماذكرت على ان احداً منكم قلما يجهل ذلك من امره . ومعظمكم يستظهر الكثير الطيب من شعره

نحن معشر العرب اصبحنا منذ سنين نهاجم في عقائدنا وفي تقاليدنا وسائر اوضاع اجتماعنا ولم تخلُ لغتنا المحبوبة من هذه المهاجمة العنيفة ايضاً . لم تخلُ من تنين هائل يواثبها . ويحاول القضاء عليها . ذلك التنينُ هو فكرةٌ مشؤومة ترمي الى احياء اللغة العامية وإماتة اللغة الفصحى . ما هي اللغة العربية في حدود سنة (١٩٠٠) اي منذ ثلاثين سنة تقف على ضفاف النيل . شاحبة اللون . مرتجفة الاعضاء واهنة ذاهلة . تندب نفسها . وتشكو مصابها :

« يا ويح أهليَ أبلى تحت أعينهم على الفراش ولا يدرون ما دائي »

داؤها ايها السادة هو ماخامر نفوس أبنائها من زهدهم فيها . ونفورهم عنها إلى غيرها من اللغات الاجنبية . والى نصرة الفكرة المشؤومة : فكرة إحياء اللغة العامية

تلك الفكرة المشئومة في أحد دهاة الانكليز (المستر ويلمور)

هبط (المستر ويلمور) مصر في ذلك الحين . وقام بدعاية واسعة النطاق لهذه العامية المصرية . وخطب في الموضوع وكتب . وحاور وناظر . وألّف كتاباً نشره على المصريين . يدعوهم إلى فكرته . ويقنعهم بصحة رأيه . ومما يؤسف له أن يجد (ويلمور) أنصاراً له من الشعوبيين . شايعوه على رأيه . وأقاموا ضجة في القطر المصري اهتزت لها البلاد العربية قاطبة . وكادت تكون لويلمور ولأشياعه الغلبة لو لم تعدهم نهضة حُماة اللغة الفصحى . وفي طليعتهم فقيدنا بالامس (حافظ ابراهيم) فيرفع صوته في وسط تلك الضجة . منشداً قصيدته الخالدة على لسان اللغة الفصحى : تخاطب ابناءها وتألمهم إياتها . فتقول :

أيطربكم من جانب الغرب ناعبٌ ينادي بوادي في ربيع حياتي
ولو تزجرون الطير يوماً علمتمو بما تحتهُ من فرقةٍ وشتات

ثم تلوم الصحف على خوضها في هذا الموضوع فتقول :

أرى كل يوم في الجرائد مزلقاً من القبر يدنيني بغير أناة
وأسمع للكتّاب في مصر ضجةً فأعلم أن الصائحين نعاتي

ثم تحضهم على الاخذ بالحزم في دفع الضر عنها :

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ومنكم وإنْ عزّ الدواء أساتي
فلا تكلوني للزمان فإنني أخاف عليكم أن تحين وفاتي

ثم ذكرتهم بجدودهم أبطال الجزيرة الذين كانوا يغارون عليها :

سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً يعزُّ عليها أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظتهُ لهنَّ بقلبٍ دائم الحسرات

وعاتبتهم على ميلهم الى اللغة العامية الممزوجة بالالفاظ الافرنجية

أيهجرني قومي عفا الله عنهمو ... الى لغة لم تتصل بُرواةِ
سرتْ نوبة الإفرنج فيها كما سرى ... عُبابُ الأذى في مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعةً ... مشكلة الألوان مختلفات

وعادت اللغة الفصحى إلى وصف مزاياها والتساؤل لماذا عقها بنوها . وهي لم تقصر في خدمة دينهم وحضارتهم . فقالت :

وسعت كتاب الله لفظاً وغايةً ... وما ضقتُ عن آي به وعظاتِ
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحرُ في أحشائه الدرُّ كامنٌ ... فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي

ثم عيرت ابناءها بالغربيين الذين عزّوا لما عزّت لغاتهم فقالت :

أرى رجال الغرب عزّ بعزّ لغات ... وكم عزّ أقوامٌ بعزّ لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تشقّقت ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات

ثم اختتمت شكرها وتقديم إنذار مخيف الى الكتّاب لحثهم على نقل لغات الافرنج وآدابهم فقالت :

فيا معشر الكتّاب والجمع حافلٌ ... بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فإما حياةٌ تبعث الميت في البلى ... وتنبتُ في تلك الرموس رفاتي
وإما ممات لا قيامة بعده ... ممات لعمري لم يتس بمماتِ

كانت هذه القصيدة من شعر (حافظ) من أمضى الاسلحة التي شهرت في وجه (المستر ويلمور) فأخفقت دعوته ، وطويت رايته ، ونكص على عقبيه إلى بلاده . وكان أمير الشعراء (احمد شوقي بك) يشير إلى هذا الموقف المحمود الذي وقفه (حافظ) في وجه دعوة (ويلمور) فقال في رثائه له :

يا حافظ الفصحى وحارس مجدها ... وإمام من نجلت من البلغاء
ما زلت تهتف بالفصيح وفضله ... حتى حييتَ أماثة القدماء

وكما حنق (حافظ) على (ويلمور) حنق أيضاً على المستر (بلنت) الانكليزي الذي اشتهر في الدفاع عن القضية المصرية ضدّ قومه الانكليز : قال هذا الرجل كان يرفع من شأن القصص العربية السخيفة العبارة ويقول عن قصة (بني هلال) انها نوع من القصص المسمى (إبيك) وانها إلياذة عربية صغيرة فكان قوله هذا إليُسْرٌ (حافظاً) بل كان يحسبهُ خدعةً ودعوةً إلى اللغة العامية

ثم إن فوز (حافظ) في هذه المعارك نشّطه إلى متابعة العمل في نصرة اللغة . فاستمرّ يحيي فصيحها . وينشر الدرّ من كلمها إلى آخر نسمةٍ من حياته . بل كان في مجالسه . وبين طلاب الادب المطيفين به — كأنه (استاذ سيّار) يصحح أغلاطهم . ويرشدهم الى الفصيح من القول . والصحيح من الاساليب . اما مقدرة حافظ اللغوية العملية فتتجلى لنا في الالفاظ الفصيحة التي كان يبدعها قصائده ومحاضراته . وقد شهد له بهذه المقدرة (الشيخ ابراهيم اليازجي) : فقد كان يستجيد ذوق حافظ في اللغة . واختيار فصيح كلمها . قال الشيخ عبد العزيز البشري

« إن (حافظاً) لا يرى جلال الشعر وبهاءه في التعمق بدقائق المعاني : لان هذه المعاني تقع لتدهاء والعامة . وانما جلال الشعر وبهاؤه في اشراق الديباجة . ونصاعة القول »

وقال خليل بك مطران : « لحافظ غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى: وهو يؤثر البيت الذي جاد لفظهُ على البيت الذي جاد معناه . فاذا فاته الابتكار في تصوير المعنى لا يفوته الابتكار في تصويره باجزل الالفاظ . وأبهج الاساليب » . إذن يمكننا القول بان (حافظاً) كان لغوياً من الوجهة العملية التطبيقية كما كان لغوياً من الوجهة العاطفية القومية

وكثيرون من نقاد الادب المعاصرين حمدوا الله على أن كان أسلوب (حافظ) في شعره غير أسلوبه في نثره . فقد كان رحمهُ الله يتأنق في شعره مع مراعاة السهولة والسلاسة . اما في نثره فأمره على العكس . كان يتأنق فيه وينصب نفسه في انتقاء كلماته . لكنهُ لم يوفق الى جعله سهلاً سلساً . فلم يعد نثره مقبولاً الا لدى الخاصة وجهابذة الادب

على أن بعضهم مهّد لحافظ طريق العذر : كالاستاذ لطفي جمعه فانهُ قال :

« ان (حافظاً) على كلٍّ قد احسن الى قراء العربية وكتابها : وذلك لانهُ أنعش أسلوب الكتابة . وحفز الهمم للبحث عن الألفاظ الجزلة . وأثرى كتابة الصحف أثراً نافعاً »

ثم إن عناية (حافظ) باستعمال غريب اللغة كان على اشده في ترجمة (البؤساء) فلم يُرض ذلك أنصار الادب الحديث . وانما أرضى انصار الأدب القديم كالشيخ محمد عبده فانه رحمه الله كان يعجب بكتابة حافظ وما تضمنته من الالفاظ الجزلة وكان يقول : « ان كان بؤس حافظ هو الذي أدى إلى استخراج كتاب البؤساء فندعو الله ان يزيده بؤساً حتى يزيدنا من هذا الادب الجميل »

ولا غرو ان يرحب جمعنا العلمي بنشر (حافظ) كما رحب به الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده . لاننا معشر أعضاء المجمع أول ما يهمنا من الآثار الأدبية ان تكون لغتها صحيحة . وان نسترعب من روائع كلمات اللغة ما كاد يميته الجهل . ويطمس عليهِ شيطان العصبية

واللغات كما تنمو باضافة كلمات أجنبية إليها تنمو بأحياء القديم الفصيح من كلماتها . وقد تفطن (حافظ) إلى هذا فأودع مصنفاته الكثير الطيب من تلك الكلمات . وان كتابه (الاقتصاد السياسي) الذي ألّفه أو ترجمه (مع صديقه خليل بك مطران) ليقف الطلاب على هذا العلم . ويقرر لهم قواعده لكنه أودعه من (الالفاظ الكتابية) ما جعله كتاب أدب ولغة . أكثر مما هو كتاب علم واقتصاد . وكذلك شأنه في كتابه (سطيح) الذي تقد فيه أحوال المصريين وأفرغ حوادثه في قالب قصة تنسب روايتها الى سطيح (سطيحاً) . فالكتاب إذن رواية قصصية وكان ينبغي ان تتجمع شرائط القصة وليس من شرائطها أن تكون بهذه الاساليب الفخمة . وأن تحتوي هذ القدر من الالفاظ الجزلة

وهذا كتابه (البؤساء) الذي نقل فيه إلى العربية بؤساء (فيكتور هيغو) . وفيكتور هيغو جعل أبطال بؤسائه من طبقات مختلفة . وجعل كل بطل منهم يتكلم باللهجة التي اعتادتها طبقته . فالسوقي العامي مثلاً لا يتكلم بلغة العالم الأديب . ولا العكس . وطريقة (هيغو) هذه مطابقة للبداهة

الذي قرّره أديب العرب الأكبر (الجاحظ) في كتابه الحيوان : من أن الواجب في نقل عبارات السوقة وألفاظ العامة أن تروى كما هي بي مغلوطة منحولة والا ذهب رونقها وضعف تأثيرها

وشاعرنا (حافظ) رحمهُ الله كان كلفهُ بفصيح اللغة وجزل الكلام يحمله على أن يترجم كلام السوقة من أبطال البؤساء بعبارة فخمة الالفاظ لا ينطق بها عادةً الا الفصحاء

فالبناء الذي يبني رصيف الشارع اذا أراد أن يتكلم هل ينطق بكلمات (تيامن ثم تياسر) و (ركب المحجة) و (ما أخلقك يا فلان بكذا) . هكذا (حافظ) ترجم لنا كلام البناء الافرنسي . ووصف لنا فرساً بأنهُ (سحير . عنطب . أهنع . أدكّ . مفتوح الشان) و(فلان ليث معلّقاً بحبيط من الاجل تحت شق مقص القضاء) ... الى غير ذلك مما حمله ولوعه به على استعماله في غير مواطنه . مواطن هذه الكلمات كتب الادب و (المقامات) . لا القصص والروايات . حافظ بهذا الاعتبار خلق لغوياً كاتباً . بل كاتباً مقاماتياً قديماً . لا كاتباً روائياً حديثاً . انما هو في الشعر فعلى العكس : اذ كان لا يستعمل غريب اللغة بكثرة تدل على شرهه وحرصه . فمن ثم لم يكن لغوياً في شعره . كما كان لغوياً في نثره . ولكن هذا الشره الى غريب اللغة في النثر إن كان ساء اقواماً فانهُ لم يكن ليسوء مجمعنا العلمي الذي يحرص على ان تحيى اللغة العربية بإحياء الفصيح من كلماتها . والقديم أزلم من تعابيرها . لذلك كانت طبيعة المجامع اللغوية تحافظ من جهة لغته ونثره تعادل بل تفوق طبيعة الامة العربية به من جهة نثره وشعره

* * *

وصفنا لكم (حافظاً) العصر في مجامع اللغة والادب أما (حافظ) العصر في مجالس الانس والطرب فاليكم طرفاً مما يتسع له المقام :

يظهر أن أهل (حافظ) تنبأوا يوم ولادته بأن سيكون مولودهم كثير الحفظ لاخبار العرب وأشعارهم ومستملح نوادرهم فسموه (حافظاً) . روى اصدقاء (حافظ) انهُ كان يعمل على وضع مصنف في المرقص من شعر العرب يختار فيه لكل شاعر بيتاً من اروع ابياته وقد جمع مواد ذلك الكتاب . حتى بلغ نصفه . فاختار لبعض الشعراء مثلاً قوله :

ولا بدَّ لي من جهلة في وصاله فهل من كريم أودع الحلم عنده

واختار لغيره غيره وهكذا . وان الناظر (حافظ) في حفظ بليغ اشعار العرب على هذه الصورة أثر فيه ذوقاً في اللغة العربية . فكان انتقى الشعراء المعاصرين عبارة . وأصحهم تركيباً . وأكثرهم تدقيقاً في اختيار الفصيح الرائع من الالفاظ . وليس هذا فقط بل إن حفظه لاخبار العرب جعله نديماً ظريفاً : غير ممل المجلس . ولا مأجوم الحديث

وقد استحسن الدكتور (زكي مبارك) ان نطلق على (حافظ) ومن كان على شاكلته من حفّاظ اخبار العرب — كلمة (محدّث) قال . وهو الذي يسميه الافرنسيون Causeur وانا

لا اوافق الدكتور على ما قال : لان لقب (المحدّث) غلب في لغة الاسلام على راوي احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وان في آدابنا العربية كلمة اخرى احق بالقبول وأجدر وهي كلمة (أخباري) نسبة الى السحر في الاخبار والاتساع في الرواية

وقد كان (الجاحظ) اكبر (اخباري) قام في الاسلام وبعده المسعودي و لحسين التوخي صاحب نشوار المحاضرة وغيرهم كثيرون . وسمي (الجاحظ) هذا العلم (علم الخبر) وأثر عنهُ انهُ قال (علم الخبر هو علم الملوك) . وعلى هذا يمكننا ان نقول : ان حافظاً كان اكبر المعاصرين في (علم الملوك) عندنا . كما كان (اناتول فرانس) اكبر استاذ في هذا العلم عند الافرنسيين . وكان (حافظ) رحمهُ الله يعرف من نفسهِ التفوق في هذا العلم : استأذن يوماً على المغفور له (سعد زغلول) وكتب اليهِ هذين البيتين :

قل للرئيس جزاه الله صالحةً بأن شاعره بالباب ينتظر
إن شاء حدَّثهُ او شاء انشده بكلِّ نادرة تُروى وتبتكر

وقد اتفقت كلمة من ترجم لحافظ كما اتفقت كلمة فضلاء دمشق الذين حضروا مجالسه في زيارته الاخيرة لبلدهم — انهُ ابرع اخباريٍّ وأظرف نديم عرفوه في حياتهم . ولولا وقارُ (مأتم التأبين ! لرويا لحضراتكم شيئاً من ملحهِ الادبية مما يدل على شدة ذكائه . وقوة حفظه

* * *

على اني مهما اغفلت ذكر خبر من اخبار حفظه . لا احب ان يفوتني ذكر خبر مستغرب اتفق له مرة في نسيانه : ذلك انَّ (حافظاً) يحفظ اخبار الاولين والآخرين ويروي ما يحفظهُ بكل دقة وتثبت . ولكنهُ مع هذا ذهل مرةً عن خبر (قصر الجزيرة) الذي كان للخديوي اسماعيل ثم اتخذ فندقاً لكبار السياح ثم صار قصراً لآل لطف الله — فروى لنا (حافظ) ان هذا القصر اصبح (بستان حيوان) . وذلك قوله من قصيدة[1] وصف فيها ذلك القصر :

كنت بالامس جنة الحور يا قصـ ـر فأصبحت جنة الحيوان

ولعمري ان نسيان (حافظ) لخبر هذين القصرين اللذين هما على مرمى سهم من نظراتهِ . وظالما لمحهما في غدواتهِ ورواحاتهِ — أمرٌ مستغربٌ جداً نرويه في غرائب أخباره بعد مماته . كما كان رحمه الله يروي غرائب أخبار من كان قبله في حياتهِ . وهذا النسيان من (حافظ) يشبه ما روي عن الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده انه استأذن يوماً على بعض إخوانه . فسأله الحاجب عن اسمهِ . فأطرق يتذكر رحم الله (الشيخ عبده) ورحم (حافظاً) . وهل تزول الزمان . أيها الاخوان . يخلف علينا مثلهم في العلماء والشعراء ؟ إن فعل نكن حقاً من السعداء

(١) هذه القصيدة منشورة في ديوان حافظ المطبوع سنة (١٩٠٧) ولم أجدها في ديوانه الذي طبع سنة (١٩٢٢)